رأى جديد في

حماد الراوية

للأستاذ السيد يعقوب بكر

١ — منهج البحث

لعل أهم ما أقصد إليه في هذا البحث هو تمحيص رواية حماد (أعني روايته للشعر)؛ فقد أكثرت كتب الطبقات من ذكر أخباره والأحداث التي تقلبت عليه، ولكنها لم تعرض لروايته كما يعرض العلماء لمواضيع بحثهم، ولم تمحصها كما يجب أن تمحص الأشياء، وكل ما فعلته أنها اتهمته بالوضع والانتحال وذكرت من أخبار انتحاله الشيء الكثير.

أقول: لعل أهم ما أقصد إليه في هذا البحث هو تمحيص رواية حماد. ولكنني قبل أن أمحص هذه الرواية، يجب علي أن أعرض لحياة هذا الراوية في عصره وللراوية هذا العصر؛ فلعلنا إذا كتناه حياته والرواية في عصره يأخذ بيدنا عند تمحيص روايته؛ ولعله يكشف لنا منها جوانب ما كنا لنفطن لها لولاه؛ ولعله يكشف لنا عن الدواعي التي حدت به إلى أن يضع إن كان قد وضع حقا، أو الدواعي التي جعلت الرواة يتحاملون عليه إن كان هو من الوضع بريء.

هذا منهج من البحث لا أشك في أنه سيصل بي إلى النتيجة الحق. ذلك لأنه منهج قائم على أساس صحيح؛ فهو يربط بين حماد راوية وبينه إنسانا في ذاته وإنسانا في مجتمع، وهو يربط بين روايته ومجرى الرواية في عصره. والدراسات الأدبية لا يمكن أن تؤدي إلى الحقيقة ما لم تربط بين من تدرسه وبين نفسه وبيئته.

٢ — حياة حماد

يقول ابن قتيبة[1] في كتاب المعارف (ص ١٨٣): هو حماد بن هرمز؛ وكان هرمز من سبي مكنف بن زيد الخيل، وكان ديلميا يكنى أبا ليلى. ويقول في كتاب الشعر والشعراء (ص ١٥٧ M. J. De Goeje): وحماد الراوية مولى مكنف.

وفي الأغاني[2] (ج ٥ ص ١٦٤ ط بولاق) أن الأصمعي سأل حمادا: ممن أنتم؟ فقال حماد: كان أبي من سبي سلمان بن ربيعة، فطرحتنا سلمان لبني شيبان، فولاؤنا لهم.

ويقول ابن النديم[3] في الفهرست (ص ٩١ ط فلوجل) إنه: أبو القاسم حماد بن سابور[4] بن المبارك بن عبيد؛ وكان سابور يكنى أبا ليلى، من سبي الديلم، سباه ابن عروة بن زيد الخيل[5] — ووهبه لابنته ليلى يخدمها خمسين سنة، ثم ماتت، فبيع بمائتي درهم، فاشتراه عامر بن مطر الشيباني وأعتقه.

ويقول ياقوت[6] في معجم الأدباء (ج ٤ ص ١٣٧ ط مرجليوث) إنه حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي؛ مولى بني بكر بن وائل، وقيل مولى مكنف بن زيد الخيل الكوفي المعروف بالراوية

ويقول ابن خلكان[7] في وفيات الأعيان (ص ٢٤٠ ط باريس) إنه أبو القاسم حماد بن أبي ليلى سابور، وقيل ميسرة ابن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي.

فظاهر من هذه الروايات الخمس أن حمادا ديلمي الأصل؛ وأنه من الموالي، وإن كان قد اختلف في ولائه: لمن. على أن هذا اختلاف في الظاهر. فنحن إذا أخذنا برواية ابن النديم استبان لنا أن ولاء حماد كان لابن زيد الخيل (ابن عروة كما يقول ابن النديم، أو مكنف كما يقول ابن قتيبة وياقوت، ثم كان لعامر بن مطر الشيباني. وشيبان بن ثعلبة، وثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر. وهكذا نفهم تردد ولاء حماد بين ابن زيد الخيل وبني شيبان وبني بكر بن وائل. ولكننا لا نجد بعد هذا تفسيرا لما يقوله حماد من أن أباه كان من سبي سلمان بن ربيعة، فنحن لا نعرف من هم بنو سلمان هؤلاء.

والديلم — كما يقول هيار Huart في كتابه: Littérature Arabe (ص ٥٨) — هم ذلك الجنس الهائل الذي كان يحتقر العرب؛ والذي كان يسكن جبال جيلان الوعرة

(١) توفي سنة ٢٧٦ أو ٢٧١ أو ٢٧٠ هـ.

(١) توفي أبو الفرج سنة ٣٥٦ هـ.
(٢) توفي سنة ٣٨٥ هـ.
(٣) في الفارسية Shahpur
(٤) كان زعما لطيء
(٥) توفي سنة ٦٢٦ هـ
(٦) توفي سنة ٦٨١ هـ.

مستقلا غير خاضع لسلطة ما ؛ والذى استولى على بغداد باسم بنى بويه ، فجرد الخلافة من سلطتها الزمنية ، ولم يبق لها إلا سلطة روحية محضا . وكان لحنى حماد ينم عن أصله الأعجمى .

وظاهر من هذه الروايات أيضاً أن هناك خلافاً حول اسم أبى حماد . فابن قتيبة يقول إنه هرمز ، وهو فى هذا يوافق الجاحظ[1] فيما يحكيه عنه السيوطى فى المزهر (ج ٢ ص ٢٠٦) وابن النديم يقول إنه سابور ؛ ويتابعه فى هذا هيار (ص ٥٨) ، وتشارلز ليال Charles Lyall فى كتابه : Translation of Ancient Arabian Poetry (المقدمة : هامش ص ٣٩) وفى مقدمته لترجمة المفضليات (هامش ص ١٣) : وياقوت يقول إنه ميسرة[2] ، وهو فى هذا يوافق الهيثم بن عدى فيما يحكيه عنه أبو الفرج فى الأغانى (ج ٥ ص ١٦٤) والبغدادى فى خزانة الأدب (ج ٤ ص ١٢٩ ط بولاق) .

وقد ولد حماد بالكوفة . واختلف فى تاريخ ميلاده ؛ فهو عند ابن النديم (ص ٩١) سنة ٧٥ هـ ، وينقل عنه فى هذا بروكلمان فى كتابه : Geoch. ol. a. Litt (ج ١ ص ٦٣) وهو عند ياقوت (ص ١٤٠) سنة ٩٥ هـ ، ويتابعه فى هذا ابن خلكان (ص ٢٤١) . كذلك اختلف فى تاريخ وفاته ؛ فهو عند ابن النديم (ص ٩١) سنة ١٥٦ هـ ، وهو عند ياقوت (ص ١٤٠) وابن خلكان (ص ٢٤١) سنة ١٥٥ هـ .

وحماد من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية . فتشارلز ليال يقول فى كتابه الأول : (المقدمة ، هامش ص ٣٩) : « علا ذكر حماد الراوية بن سابور الفارسى الأصل وجامع المعلقات ومعظم شعر امرىء القيس فى دولة بنى أمية خاصة ، منذ عهد يزيد الثانى (يعنى يزيد بن عبد الملك) (١٠١—١٠٥) حتى سقوطها سنة ١٣٢ ، وبعد ذلك عاش فى عصرى المنصور والمهدى » . فالذى يؤخذ من قول هذا المستشرق أن حماداً لم يدرك عصرا بعد عصر المهدى ، وهو فى هذا يتابع ما رواه ابن خلكان إذ يقول (ص ٢٤١) : « وقيل إنه توفى فى خلافة المهدى » . على أننا نجد فى الأغانى (ج ٣ ص ٨٠) هذه الرواية : « ذكر أبو أيوب المدنى أن حمادا الراوية حدثه ، قال : رأيت عبد الرحيم الخفاف أيام هرون الرشيد بالرقة ... » ، وهى رواية صريحة الإشارة إلى أن حمادا أدرك عصر الرشيد ، ولكننا لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن نرجحها على سائر الروايات التى تقف بحياة حماد قبل عصر المهدى ، أو عن هذا العصر ، بل إننا لا نظن حمادا قد أدرك عصر المهدى كما تقول الرواية التى أشار إليها ابن خلكان . فحماد قد توفى سنة ١٥٦ هـ كما يقول ابن النديم ، أو سنة ١٥٥ هـ كما يقول ياقوت وابن خلكان ؛ بينما أن المهدى تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ . والرواية التى يشير إليها ابن خلكان غير صريحة النسبة ، وهى لا تذكر تاريخا معينا . وقد رجع تشارلز ليال عما قاله فى كتابه الأول (المقدمة ، هامش ص ٣٩) من أن حمادا توفى سنة ١٦٠ هـ ، وجعل يشك فى أن حمادا أدرك عصر المهدى ، وهذا فى مقدمته لترجمة المفضليات (ص ١٨) . ويبدو لنا أنه فى الكتاب الأول قد أخذ بمفهوم الرواية التى يشير إليها ابن خلكان ، فافترض سنة ١٦٠ هـ تاريخاً لوفاة حماد ، أى بعد ولاية المهدى الخلافة . وهذا افتراض محض ، لأن المراجع العربية لم تذكر هذا التاريخ .

وقال ابن النطاح (الأغانى ج ٥ ص ١٧١ ، وخزانة الأدب ص ١٣١) : « كان حماد الراوية فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه فبلغ فى العلم ما بلغ » . وهذه الرواية — إن صحت — تدلنا على طور من أطوار حياة حماد ، لا بد أنه خلف فى نفسه أثراً ، ولا بد أنه كيف مزاجه تكييفا خاصا .

وكان خلفاء بنى أمية يقدمون حمادا ويؤثرونه ، وكثيرا ما كانوا يستحضرونه لينشدهم وليسألوه ، فكان يفد عليهم فيجزلون صلته . ويروى أنه كان منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك فى خلافته ، فأسخط هذا هشاما أخا الخليفة وولى عهده ؛ فلما تولى هذا الخلافة خاف حماد على نفسه ، فلزم بيته سنة لا يبرحه ؛ ولكن هشاما لم يلبث أن استدعاه إلى دمشق ليسأله عن بيت من الشعر : من قاله ؟ فلما أجابه وأنشده أجازه وأحسن صلته . وهذه

---

(١) توفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) يبدو لتشارلز ليال فى مقدمته لترجمة المفضليات (هامش ص ١٣) أن ميسرة — وهو اسم عربى — قد أطلق على أبى حماد ، هرمز أو سابور ، حين ولائه .

القصة مذكورة فى معظم المراجع التى بين يدينا ؛ وهى مذكورة على سبيل المثال فى الأغانى (جـ٥ ص ١٦٦–١٦٧)، وقد استغرق ذكرها جُلّ ما كتبه صاحب نزهة الألباء عن حماد (ص ٤٤ — ٥٠) ، وذكرها السيوطى فى تحفة المجالس ونزهة المجالس (ص ٦٩ — ٧١ ط مطر السعادة) . ولكن الأستاذ أرندنك Arendonk ، كاتب مادة حماد الراوية فى الموسوعة الإسلامية ، يشك فى صحة هذه القصة فهو يرى أنها لا يمكن أن تقع فى مثل هذا التاريخ ، وأن سماتها تشبه سمات قصة تروى عن الوليد الثانى (يعنى الوليد بن يزيد) الذى كان خاصة يستمع إلى حماد كثيرا . ويشك أبو الفرج (جـ ٥ ص ١٦٧) فى صحة جانب من هذه القصة ، وهو أمر هشام الجاريتين المذكورتين فى القصة بسقى حماد الخمر ؛ لأن هشاما — كما يقول أبو الفرج — لم يكن يشرب ولا يسقى أحدٌ بحضرته مُسكرا ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه . كما أن ابن خلكان يشك فى جانب آخر من القصة ، وهو أمر هشام يوسف بن عمر الثقفى باستدعاء حماد ؛ فهو يقول (ص ٢٤١) : « وما يمكن أن تكون هذه الواقعة مع يوسف بن عمر الثقفى لأنه لم يكن واليا بالعراق فى التاريخ المذكور بل كان متوليه خالد بن عبد الله القسرى » . وفى اعتراض ابن خلكان تفسير للشطر الأول من اعتراض أرندنك .

ويبدو لنا أن قصة حماد مع الوليد بن يزيد التى يشير إليها أرندنك فى الشطر الثانى من اعتراضه هى التى رواها أبو الفرج فى الأغانى (جـ ٦ ص ١٢٨) حيث قال : « ... قال (أى حماد) : دخلت يوماً على الوليد ، وكان آخر يوم لقيته فيه ، فاستنشدنى ، فأنشدته كل ضرب من شعر الجاهلية والإسلام ، فما هشّ لشىء منه ، حتى أخذت فى السخف فأنشدته لعباد بن ذى كنانة مجتبناً ... فضحك حتى استلقى ، وطرب ودعا بالشراب ، فشرب ، وجعل يستعيدنى الأبيات ، فأعيدها ، حتى سكر ، وأمر لى بجائزة ، فعلمت أن أمره قد أدبر . ثم دخلت على أبى مُسلم ، فاستنشدنى ، فأنشدته قول الأخوة :

لنا معاشر لم ينبوا لقومهم

فلما بلغت إلى قوله :

تُهدى الأمورُ بأهل الرشد ما صلحت

وإن تولّت فبالأشرار تنقاد

قال : أنا ذلك الذى تنقاد به الناس ، فأيقنت حينئذ أن أمره مقبل » .

على أن هذه القصة غير صحيحة فيما يبدو لنا . فإن أبا مسلم الخراسانى لم يبرز إلى الميدان السياسىّ إلا سنة ١٢٩ هـ ، أى بعد وفاة الوليد بن يزيد بثلاث سنين . وأغلب الظن أنها من وضع دُعاة العباسيين وضعوها تشهيراً بالوليد وإظهاراً لما كانت عليه دولة بنى أمية من انحلال وما كانت عليه الدعوة العباسية من قوّة . وهكذا يسقط الشطر الثانى من اعتراض أرندنك .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان حماد ذا حظوة لدى يزيد ابن عبد الملك ، ثم لدى الوليد بن يزيد من بعده . وتفسير هذه الحظوة يسير . فقد كان الخليفتان يحبان اللهو والمجون ، وكانا يجدان فى حماد ما يوائم ذينك اللهو والمجون من شعر سافر ومذهب داعر .

على أنه لم يكن ذا حظوة لدى العباسيين . يظهر هذا مما يرويه أبو الفرج (جـ ١٢ ص ١٠٢) إذ يقول : « ... كان مطيع بن إياس منقطعاً إلى جعفر بن المنصور ، فطالت صحبته له من غير فائدة ، فاجتمع يوماً مطيع وحماد عجرد ويحيى بن زياد ، فتذاكروا أيام بنى أمية وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكهم وطيب دارهم بالشام وما هم فيه ببغداد من القحط فى أيام المنصور وشدة الحر وخشونة العيش وشكوا الفقر فأكثروا ... » ؛ ومما يرويه أبو الفرج (جـ ٥ ص ١٦٩ — ١٧٠) والبغدادى (ص ١٣٠ — ١٣١) من أن جعفر بن أبى جعفر المنصور المعروف بابن الكرية كان يستخف مطيع بن إياس ويحبّه ، وكان منقطعاً إليه ، وله منه منزلة حسنة ، فذكر مطيع حماداً وكان صديقه وكان مطرحا مجفواً فى أيامهم ، فقال له : ائتنا به لنراه ، فأتى مطيع حماداً فأعلمه بذلك وأمره بالمصير إليه ومعه ، فقال له حماد : دعنى فإن دولتى كانت مع بنى أمية ومالى مع هؤلاء خير ، فأبى مطيع إلا الذهاب به ، فلما أتيا جعفر استنشد هذا حماداً فأنشده قصيدة جرير التى مطلعها :

بان الخليطُ برامتين فودّعوا أوَ كلما اعتزموا لبَيْن تجزعُ

فلما وصل إلى قول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلاّ هزئت بغيرنا يا بوزع

أبدى جعفر نفوره من لفظ بوزع ، وأمر غلمانه بصفع حماد

وخبرٌ وجله . ويقول أرندنك إنه «كان أحد الشعراء الذين خرجوا عن بغداد فى عهد المنصور فى طلب المعاش فذهب إلى الكوفة[1] ؛ ولكن يُقال إن المنصور استدعاه ثانية إلى بغداد من البصرة» .

ومن اليسير علينا أن نفسر إعراض العباسيين عن حماد ورفاقه . فقد كان العباسيون فى أول أمرهم يأخذون الحياة مأخذ الجد ، ويصطنعون الصرامة والقسوة ، ويعملون على تدعيم ملكهم الوليد . وما كان لمثل هؤلاء أن يُقبلوا على حماد ورفاقه ، وأن يسوغوا لهوهم ومجونهم . هذا إلى أن حماداً ورفاقه كانوا من المقربين إلى بنى أمية ، وما كان للعباسيين أن يقربوا من كان هواهم مع أعدائهم .

وقد اشتهر حماد بمجونه واستهتاره وفسقه وسكره . وتجد فى الأغانى (جـ ٥ صـ ١٦٩) قصة من قصص استهتاره ، كما تجد صورة من صور فسقه فى (صـ ١٧٠) .

ويقول ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (صـ ٣٠٢ المكتبة التجارية): «وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الجادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان النحوى ؛ وكانوا يتعاشرون ويتنادمون ، وكانوا يرمون بالزندقة كلهم[2] ؛ وكان حماد بن الزبرقان عتب على حماد الراوية فى شىء فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف قدرَه ... ويقيمُ وقت صلاته حمادُ
هدلت مشافرة الدنانُ فأنفه ... مثل القدوم يسنُّها الحداد
وابيضّ من شُرب المدامة وجهُه ... فبياضُه يوم الحساب سواد»

على أن نسبة هذه الأبيات إلى حماد بن الزبرقان فى هجاء حماد الراوية يحوطها الشك ؛ فأبو الفرج (جـ ٥ صـ ١٧١) ينسبها وثلاثة أبيات أخرى بعدها إلى أبى العول الطهوى فى هجاء حماد ، والبغدادى (صـ ١٣٢) ينسبها — مغيّرة قليلا — إلى أبى العول الطهوى أيضاً ، وابن خلكان (جـ ١ صـ ٢٩٥ ط مصر) ينسب البيتين الأول والأخير منها إلى بشار فى هجاء حماد عجرد وكانا يتهاجيان ، والمرتضى فى أماليه (صـ ٩٢ ط صبيح) يذكر رواية تؤخذ منها أن أبا العول الطهوى قال هذه الأبيات — مع اختلاف فى صدر البيت الثانى — وبيتاً رابعاً فى هجاء حماد عجرد .

ولما توفى حماد رثاه محمد بن كُناسة[1] بقوله :

أبعدتَ من نومك الفرارَ فما ... جاوزت حتى انتهى بك القدرُ
لو كان يُنجى من الردى حذرٌ ... نجّاك مما أصابك الحذر
يرحمك الله من أخٍ يا أبا ... القاسم ما فى صفاته كدر
فهكذا يفسد الزمان ويفنى العلم فيه ويدرس الأثر

وهذه الأبيات يذكرها ابن النديم (صـ ٩٢) ، ويذكر ياقوت (جـ ٤ صـ ١٤٠ ط مرجليوث) وابن خلكان (صـ ٢٤٢ ط باريس) الأبيات الثلاثة الأخيرة منها مغيّرة بعض التغيير .

(البحث بقية)

السيد يعقوب بكر

(١) عالم وشاعر كوفى ، جمع أشعار قبيلة أسد ، وامتدت حياته من سنة ١٢٢ هـ إلى سنة ٢٠٧ هـ .

(١) يرجع أرندنك فى هذا إلى الأغانى (جـ ٢٠ صـ ٩١) .

(٢) تجد هذا الشطر من الرواية فى ياقوت فى ترجمة حماد عجرد (جـ ١٠ صـ ٢٥٠ ط المأمون) ، وفى الأغانى (جـ ٥ صـ ١٦٦ وجـ ١٣ صـ ٢٣) .

الكتاب

مجلة شهرية

للآداب والعلوم والفنون

تحرّرها نخبة من الكتاب العربى

وسيرة النهضة الفكرية

يصدر العدد الأوّل فى أول نوفمبر ١٩٤٥

عن دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

رئيس تحريرها الأستاذ عادل الغضبان